بداياته الاولى في القرن السادس عشر[٥].

ومع حلول النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كانت تعقيدات المسألة اليهودية، وقد تفاقمت مع تحول بلدان اوروبا من الاقطاع إلى الرأسمالية، تلد الأجنة الاولى للحركة الصهيونية، وذلك باقتران كامل مع انتقال الرأسمالية الاوروبية الى طورها الامبريالي. وهذه الاجنة هي التي تجمعت في نهاية القرن التاسع عشر لتشكل المنظمة الصهيونية العالمية ولتبلور مشروعها للسيطرة على فلسطين.

الوجود الصهيوني وردود الفعل الأولى

اما اشكال المعارضة الفلسطينية للبدايات الاولى هذه، الممعنة في القدم، فمن الصعب العثور عليها، ان وجدت؛ ومن المشكوك فيه، على كل حال، ان يكون ابناء فلسطين اطلعوا على الاتصالات الدولية التي اجريت في ذلك الوقت، او ان يكونوا شكّوا بأية اغراض سياسية وراء مجيء يهود جدد للتعبد بالقرب من الاماكن المقدسة والتبرك بالاقامة حولها؛ كما ان فلسطين ذاتها كانت، في الفترة الممتدة ما بين القرنين السادس عشر والعشرين، موزعة بين ولايات عدة، وكانت مناطقها المختلفة تتداول بين هذا وذاك، او هذه وتلك، من الامارات والولاة والولايات، فضلاً عن الغزاة الاوروبيين، على نحو يصعب معه ان نتصور وجود مقاومة لمحاولات ضئيلة الاهمية. ومن المشكوك فيه ان يكون الفلسطينيون قد علموا بها.

اذن، ولكي لا نتوه في ملفات التاريخ الوسيط، ودون خشية الوقوع في الخطأ، سنوجز فنقول: ان المعارضة الفلسطينية لمحاولات انشاء كيان يهودي في فلسطين تمثلت في سلسلة ردود الفعل المتعاقبة التي توالت مع تطور المشروع الصهيوني وخطوات تنفيذه، وذلك منذ كان هذا المشروع في ستينات وسبعينات وثمانينات القرن التاسع عشر مجرد أمل يشتمل على تصورات واهداف مشتتة، الى ان تحول لخطة عمل صاغها المؤتمر الصهيوني الاول على امل ان تنفذ بموافقة السلطات العثمانية المسؤولة عن البلاد، ثم الى ان صار عدواناً مسلحاً منصباً على فلسطين وشعبها العربي بالذات. وقد تفاوتت، بالطبع، اشكال ردود الفعل الفلسطينية وحجومها تبعاً لمدى الخطورة التي امكن ادراكها بعد كل خطوة خطاها المشروع، وكذلك، بل بضمن ذلك، تبعاً لمدى نمو الوجود اليهودي في فلسطين وبروز اطماعه الخاصة.

ان اصل هذا الوجود اليهودي يعود الى عهود قديمة. فمن بين يهود فلسطين، هناك المستعربون الذين كانوا في البلاد عند الفتح العربي لها او جاءوا اليها في ظل هذا الفتح؛ ومنهم الذين وفدوا من اسبانيا عندما طرد اليهود السفاراديم من ذلك البلد لاسباب دينية العام ١٤٩٢، أي بعد سقوط الحكم العربي الذي كان يحميهم. ومن يهود فلسطين القدماء من جاءها من بلاد اوروبية اخرى. فقد الف الكثير من الزوار والحجاج اليهود ان يبقوا في البلاد لدوافع دينية، او هرباً من الاضطهاد، او للتمتع بالامتيازات التي منحتها الدولة العثمانية لرعايا عدد من الدول الاوروبية. لكن وجود هؤلاء جميعاً لم يقترن باطماع سياسية خاصة باليهود. اما التقديرات التي تتحدث عن اعداد اليهود في فلسطين بالذات، فلم تظهر الا مع ظهور التيارات الصهيونية. والتقديرات الاولى التي ظهرت بين ١٨٦٢ و ١٨٨٠ جاءت مختلفة ومتضاربة بحيث يصعب الاعتداد بها[٦]. وأول التقديرات التي يمكن الاخذ بها، ولو بتحفظ لصدورها عن مصدر صهيوني له مصلحة في المبالغة، ظهر العام ١٨٨٠، حين قيل